وحيداً الا وهو، النكبة: آثارها، أسبابها، العودة... والنكبة ليست موضوعاً واحداً يضير الشاعر ان يقصر شعره عليه، كما يحلو للبعض ان يقول، وانما هي موضوعات شتّى لا ينضب معينها... ثم، لدى انطلاق الثورة، حيا الشاعر انطلاقتها وغنى لانتصاراتها. ولم تفته مواكبة الاحداث العربية ذات العلاقة بالقضية الفلسطينية فغنّى لبور سعيد وكرّم جول جمال، وتحدّث عن حزيران الذي محا تموز، وعن تشرين النصر الذي لم يعد الارض. وفي جانب آخر من السجل الابداعي نقرأ اسماء الرجال الذين أضاءوا أديم ذلك التاريخ والشهداء الذين رووا الثرى الخضيب. رثاهم أبوسلمى جميعاً، فلسطينيين وعرباً، وهو، في رثائه للعرب منهم، جعل قضية فلسطين نصب عينيه. وممن رثاهم نذكر: ابراهيم طوقان، وأبا خالد وهو شهيد حارب البريطانيين، ورجاء حسين عماشة وهي شهيدة فلسطينية، ومخلص عمر، وعوني عبد الهادي... وهو في رثاء هذا الاخير يقول:

نهر هادىء... يفيض عطاءً والزعامات عندنا جعجعات
... كيف ابكيك؟! انت للشعب والتاريخ في سورة الدّجى مشكاة
أنا أبكي الاحياء! عاشوا وهانوا وتساوت حياتهم والممات
(ص٣٢٦)

وبقدر ما في هذا الرثاء من وفاء للراحل الكبير وتقدير لدوره الوطني، فيه أيضاً مقارنة بأولئك الخانعين وتحريض على رفض الهوان والحياة التي يتساوى فيها الموت والعيش. انه الرثاء الذي يقيس الحياة بنوعيتها وبمقدار ما يحققه الانسان، خلالها، من إنجازات وعطاء. ولنلاحظ تلك المقارنة بين جعجعات بما يثيره لفظها ومعناها من فراغ وكبر أجوف، وبين «مشكاة» وما تعنيه من عطاء نيّر يبدّد الظّلمة.

ولكن، هل يقتصر دور الشعر على تسجيل الاحداث ومتابعتها؟ لا، فالشاعر لم يكن، في يوم، مرآة أو مؤرِّخاً. والشعر الثوري موجّه، أو هو سلاح ماض في عملية تغيير شروط الواقع التي تقف حجر عثرة أمام التقدم. ودور الشعر في عمليةً إزالة هذه الحجارة: العثرات، يتلخّص بتعريتها ووضعها في وجه الشمس والريح تتلظى وتتفتت وتتشقق، ثم يدفعها الفرسان مسحوقةً إلى مزبلة التاريخ. وبتعبير آخر إن دور الشعر يتعدّى التسجيل إلى الكشف والتحريض والنبوءة أي تهيئة المتلقي بمراكمة الخمائر لديه ولسعه باستمرار وعرض الواقع البديل، وعن هذه العلاقة بين الشعر والثورة يقول اللعبي، الشاعر المغربي: «إن العلاقة ما بين الثورة والشعر هي علاقة جدلية، فالثورة هي احدى شروط الشعر الأصيل والتي يكون الشاعر، آنذاك، وسيلة لبلورتها. كما ان الشعر، جدلياً، هو من مستلزمات الصيرورة الثورية طبعاً. المشكل هو ان مفهوم الثورة يجب ان يتجدّد»(٢٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه، هنا، هو: أي مفهوم كان، لدى الشاعر، موضوع الدراسة، للثورة التي كان وسيلة بلورتها؟

والحق ان استقراءً لقصائد ديوان الشاعر يفيد ان شاعرنا كان، ومنذ البدايات، ذا